عناصرُ تداوليّةٌ في الدَّرْسِ اللّغَويّ العربيّ:
الأحوالُ الشّاهِدةُ بالقُصودِ عندَ ابنِ جنّي

أ .د. عيسى علي العاكوب(*)

مدخلٌ إلى الموضوع:

تُعنَى التّداوليّةُ بدراسةِ اللّغةِ إبّانَ استعمالها language in use. وقد عُدتُ إلى الشّابكةِ في الـ Wikipedia، دائرةِ المعارفِ الحُرّة، لِأَجِدَ في شأن Pragmatics في الإنكليزيّةِ، أو التّداوليّة في العربيّة ما ترجَمَتُه:

هي فَرْعٌ مِن عِلْمِ اللّغةِ وعِلْمِ العلاماتِ يدرُسُ الطُّرُقَ التي بها يُسهِمُ السّياقُ في إنتاج المعنَى. وتشمَلُ التّداوليّةُ نَظَريّةَ الفِعْلِ الكلاميّ، والتّضمينَ التّحادُثيَّ، والتّحادُثَ المُتفاعِلَ، ومناهجَ أُخرى لِسُلوكِ اللّغة في الفلسفةِ، وعِلْمِ الاجتماع، وعِلْمِ اللّغة، وعِلْمِ الإنسان. وخِلافاً لِعِلْمِ الدِّلالةِ الذي يدرُسُ المعنَى الذي يكونُ اصطلاحيًّا أو «مُرمَّزاً» في لُغةٍ مُعيَّنةٍ، تدرُسُ التّداوليّةُ مسألةَ كيفَ لا يعتمدُ إرسالُ المعْنَى فقط على المعرفةِ النَّظْميّةِ واللّغويّة (ما يتّصِلُ بِالنّحوِ والمعجَمِ وغيرِهما مثَلاً) لِلْمُتحدِّثِ أو السّامع، بل يعتمِدُ أيضاً على سِياقِ التّفَوُّهِ أو التّلفُّظ، وعلى أيّة معرفةٍ موجودةٍ مِن قَبْلُ في شأن ذَيْنِكَ المتحادِثَيْنِ، وعلى القَصْدِ المستخْلَصِ للمتحدّثِ، وعلى

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وأستاذ البلاغة والنقد في جامعة حلب.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ١/ ٦/ ٢٠١٨م.

عَوامِلَ أُخَر. وبهذا الاعتبار، تُبيِّنُ التّداوليّةُ كيفَ يكونُ مستعمِلُو اللّغةِ قادرينَ على التّغلُّبِ على الغموض الظّاهر؛ لِأنّ المعْنَى يعتمِدُ على طريقةِ التّلفّظِ، ومكانِهِ، وزمانِه.. إلخ. وتُسمَّى القُدرةُ على فَهْمِ المعْنَى الذي قَصَدَه متحدِّثٌ آخَرُ الكِفايةَ التّداوليّة.

وقد حدّدَ بعضُهم سِتّةَ مجالاتٍ يَحفِلُ بها الدّرْسُ التّداوليُّ حِينَ قالَ: «تدرسُ [التّداوليّةُ] اللّغةَ عندَ استعمالِها في الطّبقاتِ المقاميّةِ المختلفة؛ أي: باعتبارِها: كلاماً محدَّداً، صادراً عن متكلِّمٍ مُحدَّد، ومُوجَّهاً إلى مُخاطَبٍ مُحدَّد، بِلَفْظٍ مُحدَّدٍ، في مقامٍ تَواصُليٍّ محدَّدٍ، لِتحقيقِ غَرَضٍ تَواصُليٍّ مُحدَّد» (التّداوليّةُ عندَ العُلَماءِ العرب، مسعود صحراوي، ص٢٦).

الأحوالُ الشّاهِدةُ بالقُصودِ عندَ ابنِ جِنّيّ:

العنصرُ التّداوليُّ الذي نتحدّثُ عنه هنا يسمّيهِ أبو الفَتْح عثمانُ بنُ جِنّيّ (ت ٣٩٢هـ) «الأحوالَ الشّاهِدةَ بالقُصود»، ويريدُ به الأوضاعَ المُشاهَدةَ التي صاحبَتْ إنتاجَ الكلام، وأسهمَتْ في تحديدِ قَصْدِ المتكلِّم مِنه. وقد ناقشَ ابنُ جِنّيّ الأحوالَ الشّاهِدةَ بِالقُصودِ في مجالَيْنِ هما: الوَضْعُ اللّغَويُّ أو إعطاءُ الأسماءِ لِلْمُسمَّياتِ، وفَهْمُ معاني الشّعر. وسنعرِضُ لِلْأمرِ في هذَيْنِ المجالَيْنِ:

أوّلاً- في مَجالِ الوَضْعِ اللّغويّ، أي: إعطاءِ الأسماءِ لِلْمُسمَّيات:

عرضَ ابنُ جِنّيّ لِمَسْألةِ السَّبَبِ في إعطاءِ العربِ أسماءً خاصّةً لبعضِ المُسمَّيات، فقال:

ثمّ لا أدفَعُ أيضاً أن تكونَ في بعضِ ذلك [إعطاءِ الأسماءِ للمُسمَّياتِ] أغراضٌ لهم، عَدَلوا إليه [الاسْم الخاصّ] لَها ومِن أَجْلِها. فإنّ كثيراً مِن هذه اللّغةِ وجدْتُه مُضاهِياً بأَجْراسِ حُروفِهِ أصواتَ الأفعالِ التي عُبِّرَ بِها عنها. ألا تَراهُمْ قالوا: «قَضَمَ» في اليابِسِ و«خَضَمَ» في الرَّطْب؛ وذلكَ لِقُوّةِ القافِ

وضَعْفِ الخاءِ، فجعلوا الصَّوْتَ الأقوى للفِعْلِ الأقوى، والصَّوْتَ الأضعَفَ للفِعْلِ الأضعَفِ.../ وقالوا: «قَطَّ الشّيءَ»: إذا قطَعَهُ عَرْضاً، و«قَدَّهُ»: إذا قطعَهُ طُولاً؛ وذلك لِأنّ مُنقَطَعَ الطّاءِ أقصَرُ مُدّةً مِن مُنقَطَعِ الدّال. وكذلك قالُوا: «مَدَّ الحَبْلَ» و: «مَتَّ إليهِ بِقَرابةٍ»، فجعَلُوا الدّالَ لِأنّها مجهورةٌ لِما فيه عِلاجٌ، وجعَلُوا التّاءَ لِأنّها مهموسةٌ لِما لا علاجَ فيه... نَعَمْ، وقد يمكنُ أن تكونَ أسبابُ التّسميةِ تَخفَى علينا لِبُعْدِها في الزّمانِ عَنّا. ألا ترى إلى قولِ سيبَوَيْهِ: «أو لَعلَّ الأوّلَ وَصَلَ إليه عِلْمٌ لم يَصِلْ إلى الآخِر». يعني أن يكونَ الأوّلُ الحاضِرُ شاهَدَ الحالَ، فعرَفَ السَّبَبَ الذي له ومِن أجْلِه ما وَقَعَتْ عليه التّسميةُ؛ والآخِرُ لِبُعْدِه عن الحالِ لم يعرِفِ السَّبَبَ للتّسميةِ (الخصائص ١/ ٦٥-٦٦).

وههنا توقّفَ ابنُ جِنّيّ عندَ عنصُرٍ تداوليّ خطيرٍ يتوقّفُ على معرفته أحياناً فَهْمُ سَبَبِ إعطاءِ الاسْمِ لِمُسمّاهُ. فإنّ الحائلَ بينَنا وبينَ العِلْمِ بأسبابِ إعطاءِ غيرِ قليلٍ مِن الأسماءِ لِلْمُسمَّياتِ هو جَهْلُنا «الأحوالَ الدّالّةَ على القُصودِ»؛ أي: الظّروفَ التي أحاطَتْ بذلك.

ثانياً- في مَجالِ فَهْمِ معاني الأشعار:

يقولُ ابنُ جِنّيّ إنّنا في محاولَتِنا فَهْمَ الأقوالِ المقولةِ قديماً نفتقِرُ إلى عنصُرٍ تداوليٍّ غائبٍ عنّا، شهدَتْهُ الجماعةُ مِن عُلَمائنا الذين دَوّنوا اللّغةَ، وكان لِمُشاهدتهم تعزيزٌ لِفَهْمِهم «فالغائبُ ما كانَتِ الجماعةُ مِن عُلَمائنا تُشاهِدُهُ مِن أحْوالِ العَرَبِ (ووُجوهها)، وتُضطَرُّ إلى معرفتِهِ مِن أغراضِها وقُصودِها: مِن استخفافِها شيئاً أو استثقالِهِ، وتقبُّلِه أو إنكارِه، والأُنْسِ به أو الاستيحاشِ مِنه، والرّضا به أو التّعجُّبِ مِن قائلِه، وغيرِ ذلكَ مِن **الأحوالِ الشّاهِدةِ بالقُصود**، بل الحالِفةِ على ما في النّفوس» (الخصائص ١/ ٢٤٥).

وإذا عرَفْنا أنّ التّداوليّةَ Pragmatics هي كما يقولُ العلّامةُ منيرُ البعلبكيّ

في المورِدِ الأكبر: «مبحَثٌ لُغَوِيٌّ يُعنَى بدِراسةِ العلاقةِ بينَ الكلماتِ أو التّعابيرِ أو الرّموزِ وبينَ مُستخدميها»، فإنّ ما ذكَرَه ابنُ جِنّيّ في المقبوسِ السّابق ينتمي إلى لُبابِ ما تعالجُه التّداوليّةُ الغربيّةُ الحديثةُ. وقد مَثّلَ ابنُ جِنّيّ لِتأثيرِ العُنصُرِ التّداوليّ المتحدَّثِ عنه هنا في فَهْمِ الأشعار التي لم يُتَحْ لنا أن نشهَدَ إنشاءَها وإنشادَها بِثلاثةِ أبياتٍ شعريّةٍ نذكُرُها هنا:

- يقولُ نُعَيمُ بنُ الحارثِ بنِ يزيدَ السَّعْديّ في وَصْفِ امرأةٍ:

تقولُ - وصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمينِها -: أَبَعْلِيَ هذا بِالرّحَى المُتقاعِسُ

ومِن حِكايةِ هذا الشّاعِرِ القائلِ أنّه عُقِدَ له النِّكاحُ على امرأةٍ ولَمّا يَدْخُلْ بِها، فمرَّتْ به في نِسْوةٍ وهو يطحَنُ بالرّحى لِضَيْفٍ نزَلُوا به، فقالَتْ: أَبَعْلِيَ هذا، تعجّباً واحتقاراً له. فقالَ الأبياتَ التي مِنها البيتُ المذكورُ. وأراد بِ«المُتقاعِسِ» الذي يُخرِجُ صَدْرَه ويُدخِلُ ظهْرَه، وهذه حالُ مَن يطحَنُ بالرّحَى.

ويرى ابنُ جِنّيٍّ أنّ قولَه في صَدْرِ البيتِ: «وصَكَّتْ وَجْهَها بِيَمينها» عنصُرٌ تداوليٌّ ضَروريٌّ لِتحديدِ القَصْدِ الدّقيقِ لِقولِ هذه المرأةِ في عَجُزِ البيت: «أَبَعْلِيَ هذا بالرّحَى المُتقاعِسُ». ويبدو هذا واضحاً في قوله: «فلو قالَ حاكِياً عنها: أَبَعْلِيَ هذا بالرّحَى المُتقاعِسُ؟»- مِن غيرِ أن يذكُرَ صَكَّ الوَجْهِ، لَأعلَمَنا بذلك أنّها كانَتْ مُتعجّبةً مُنْكِرةً، لكنّه لمّا حكى الحالَ فقالَ: «وصَكَّتْ وَجْهَها» عُلِمَ بذلك قُوّةُ إنكارِها وتعاظُمُ الصّورةِ لها» (الخصائص ١/ ٢٤٥).

ويرى عالِمُ العربيّةِ الكبيرُ هذا أنّ «الحالَ» التي يحدُثُ فيها القولُ ذاتُ تأثيرٍ كبيرٍ في إفهامِ القَصْدِ الدّقيقِ مِنه. ونراهُ يتحدّثُ عن دَرَجاتٍ مُتباينةٍ لهذا التّأثيرِ ناشئةٍ عن دَرَجاتٍ متفاوتةٍ في مُلابَستِنا الحدَثَ اللّغويّ. فقد نحضُرُ إنجازَ الحدَثِ اللّغويّ، وقد تُروَى لنا الأوضاعُ المحيطةُ بِهذا الإنجازِ بطَريقِ الرّوايةِ ونَقْلِ الخَبَر، وينشأ عن ذلك تفاوتٌ في إدراكِنا تمامَ القَصْدِ. يقولُ

ابنُ جِنّيّ مُعلِّقاً على البيت السّابقِ: «**هذا مَعَ أنّكَ سامِعٌ لِحِكايةِ الحال، غيرُ مُشاهِدٍ لها، ولو شاهَدْتَها لكُنْتَ بها أعْرَفَ، ولِعِظَمِ الحالِ في نفسِ تلكَ المرأةِ أَبْيَنَ**. وقد قيلَ: ليسَ المُخْبَرُ كالمُعاين. ولو لم يَنقُلْ إلينا هذا الشّاعِرُ حالَ هذه المرأةِ بقوله: «وصَكَّتْ وَجْهَها» لم نعرِفْ به حقيقةَ تعاظُمِ الأمْرِ لها» (الخصائص ١/ ٢٤٦).

- ما يُذكَرُ مِن أنّ الوليدَ بنَ عُقْبةَ بنِ أبي مُعَيْط الذي كان عاملاً لِعُثمانَ ﷺ على الكُوفة، وكان اتُّهِمَ بِشُرْبِ الخَمْرِ فأمَرَ الخليفةُ بِشُخوصِهِ إلى المدينة، خَرجَ في رَكْبٍ فنزَلَ يَسُوقُ بِهم، فقال:

قُلْتُ لَها: قِفي، فقالَتْ: قافْ ... لا تحسَبينا قد نَسِينا الإيجافْ

والنّشَواتِ مِن مُعتَّقٍ صافْ ... وعَزْفَ قَيْناتٍ علينا عزّاف

والشّاهِدُ هنا قولُ المرأةِ في صَدْرِ البيتِ الأوّل: «قافْ» بمعنى (إنّي واقِفةٌ، أو: وقفتُ) حيثُ استغنَتْ عن الكلمةِ بالحَرْف. ويرى ابنُ جِنّيّ أنّ فَهْمَ قولِ المرأةِ: «قاف» حِينَ قالَ لها: «قِفي» محتاجٌ إلى معرفةِ عنصُرٍ تداوليّ غائبٍ عنّا هنا، حيثُ يقولُ: «وليسَتْ كُلُّ حكايةٍ تُروَى لنا، ولا كُلُّ خَبَرٍ يُنقَلُ إلينا، يُشْفَعُ به **شَرْحُ الأحوالِ التّابِعةِ له، المُقترِنةِ - كانَتْ - به**. نَعَمْ ولو نُقِلَتْ إلَينا لم نُفِدْ بِسَماعِها ما كُنّا نُفيدُه لو حَضَرْناها. وكذلك قولُ الآخَرِ:

قُلْتُ لَها: قِفي لنا، قالَتْ: قافْ -

لو نَقَلَ إلَينا هذا الشّاعِرُ شيئاً آخَرَ مِن **جُمْلةِ الحال**، فقالَ مَعَ قولِه: «قالَتْ: قاف»: «وأمسَكَتْ بِزِمامِ بَعيرِها» أو: «عاجَتْهُ علَينا»، لَكانَ أبْيَنَ لِما كانوا عليه، وأدَلَّ على أنّها أرادَتْ: وقَفْتُ، أو توقَّفْتُ... **وإذا شاهَدَها وقد وقفَتْ عَلِمَ أنّ قولَها: «قاف» إجابةٌ له، لا رَدٌّ لِقَوْلِهِ وتعجُّبٌ مِنه في قولِهِ: «قِفي لنا»** (الخصائص ١/ ٢٤٦).

- يقولُ أبو خِراشٍ الهُـذَليُّ يَصِـفُ وقوعَـهُ فـي أيـدي قـومٍ مِـن أعدائـه أظهَرُوا له اللِّينَ لكي يتمكَّنوا مِنه، ولكنّه أيقنَ مِمّا بَدا له مِن ملامح وُجوهِهم أنّهم يُضمِرونَ له الشّرَّ معَ ما أبدَوهُ له مِن لِينٍ، ففَرَّ منهم:

رَفَوني وقـالوا: يـا خُوَيْلِـدُ لا تُـرَعْ فقُلْتُ - وأنكَرْتُ الوجوهَ - هُمُ هُمُ

ومعنَى البَيْتِ: «طَمْأنوني، وقالوا لي: لا تَخْشَ يا خُوَيْلِدُ، فقُلْـتُ - وقـد استدلَلْتُ عَلَى كَيْدِهم بمـا شـاهدتُه فـي وُجـوهِهم -: هُـمْ هُـمْ لـم يتغيَّـروا، وليس لِي أن آمَنَ إيقاعَهم به».

وقد علّقَ صاحِبُ الخصائصِ عَلَى ذلك بالقولِ: «أفلا تَرَى إلـى اعتبـارِه بِمُشاهَدةِ الوجوه، وجَعْلِها دليلاً عَلَى ما في النّفوس. وعلى ذلك قـالوا: رُبَّ إشارةٍ أبلَغُ مِن عِبارة» (الخصائص ١/ ٢٤٧).

وجَلِيٌّ هنا أنّ «إنكارَ الوجوه»، الذي عَنَى به الشّاعِرُ تعرُّفَه ما في قلـوبهم مِـن كراهيةٍ له مِن رؤيتِه وجوهَهم، عنصُرٌ تداوليٌّ يؤثِّرُ أثَرَه في فَهْـمِ قـولِ الشّـاعِرِ بعْـدَ ذلك: «هُمُ هُمُ، أي: هُمْ هُمْ لم تتغيَّرْ مُعاداتُهم إيّايَ معَ إيحائهم غيرَ ذلك.

وقد جَعَلَ ابنُ جِنِّيٍّ «مُشاهدةَ الأحوالِ» أساساً قويًّـا مِـن أُسُـسِ الإفهـامِ والفَهْم، وأَدْخَلَ ذلك في إطارٍ تَداوليٍّ كُلّـيٍّ ربّمـا لا يظفَـرُ المـرْءُ بِمِثْلِـهِ فـي أظهَرِ مُناقَشاتِ الدّرْسِ التّداوليِّ الذي يُقدَّمُ لنا في المترجَمـاتِ عـن اللّغـاتِ الغربيّة الحديثة، حَيْثُ يقول: «وبعـدُ، فالحَمّـالونَ، والحَمّـامِيّونَ، والسّاسـةُ، والوَقّادونَ، ومَن يليهم ويُعتدُّ مِنهم، يستوضحونَ مِن مُشاهَدةِ الأحوالِ مـا لا يحصِّلُهُ أبو عَمْرٍو مِن شِعْرِ الفرزدقِ، إذا أُخبِرَ به عنـه، ولـم يَحضُـرْهُ يُنشِـدُه. أوَلا تعلَمُ أنّ الإنسانَ إذا عَناهُ أمْرٌ فأرادَ أن يُخاطِبَ به صاحبَه، ويُنعِمَ تصويرَه له في نفسِه، اسـتعطفَه لِيُقبِـلَ عليـه، فيقـولُ لـه: يـا فُـلانُ، أيـنَ أنـتَ؟ أَرِنـي وَجْهَكَ، أقبِلْ علَيَّ أُحدِّثْكَ، أما أنتَ حاضِرٌ، يا هناهُ. فإذا أقبلَ عليه، وأصغَى

إليه، اندفَعَ يحدّثُه أو يأمُرُه أو ينهاه، أو نحْوَ ذلك. فلو كانَ استماعُ الأُذُنِ مُغْنياً عن مُقابلةِ العَيْنِ، لَما تكلّفَ القائلُ، ولا كلّفَ صاحِبَه الإقبالَ عليه، والإصغاءَ إليه. وعَلَى ذلك قالَ:

العَيْنُ تُبدي الذي في نَفْسِ صاحِبِها مِنَ العَداوةِ، أو وُدٍّ إذا كانا

... وقال لِي بعضُ مَشايخِنا رَحِمَهُ الله: «أنا لا أُحسِنُ أن أُكلِّمَ إنساناً في الظُّلْمة» (الخصائص ١/ ٢٤٦-٢٤٧).

مُشاهدةُ الأحوالِ عندَ عُلَماءِ العربيّةِ الأوائل:

أظهَرَ ابنُ جِنِّيٍّ أنّ هذا العُنصُرَ التّداوليَّ كان حاضِراً عَلَى نحوٍ واضحٍ في مُناقشاتِ عُلَماءِ العربيّةِ المُحقِّقِينَ أسبابَ الوَضْعِ اللّغويِّ لِكثيرٍ مِن الأسماءِ التي أُعطِيَتِ الأَشياءَ؛ وخَصَّ مُعارضةَ أبي بكْرِ بنِ السّرّاج (ت ٣١٦هـ) تماديَ أبي إسحاقَ الزّجّاج (ت ٣١١هـ)، ومُبالغتَه في حديثِ الاشتقاقِ، فقالَ ابنُ جِنِّيّ: «ولِهذا الموضِعِ نفسِه ما توقّفَ أبوبَكْرٍ عن كثيرٍ مِمّا أسرَعَ إليه أبو إسحاقَ مِن ارتكابِ طريقِ الاشتقاق. واحتجَّ أبو بَكْرٍ عليه بأنّه **لا يُؤمَنُ أن تكونَ هذه الألفاظُ المنقولةُ إلينا قد كانَت لَها أسبابٌ لم نُشاهِدْها، ولم نَدْرِ ما حديثُها**، ومَثّلَ له بقولِهم: «رَفَعَ عَقيرتَه» إذا رَفَعَ صوتَه. فقالَ له أبو بَكْرٍ: فلو ذَهَبْنا نشتقُّ لِقَولِهم «عَقَرَ» مِن معنَى الصّوت، لَبَعُدَ الأمْرُ جدًّا؛ وإنّما هو أنّ رَجُلاً قُطِعَتْ إحْدَى رِجْلَيْهِ، فرفعَها ووَضَعَها عَلَى الأُخرى، ثمّ نادَى وصَرَخَ بِأعْلَى صوتِه، فقالَ النّاسُ: رَفَعَ عَقيرتَه، أي: رِجْلَه المعقورة. فقالَ أبو بكر: فقالَ أبو إسحاقَ: لَسْتُ أدفَعُ هذا. ولِذلك قالَ سيبَوَيْهِ في نحوٍ مِن هذا: أو لِأنَّ الأوّلَ وَصَلَ إليه عِلْمٌ لم يَصِلْ إلى الآخِرِ. يعني ما نحنُ عليه مِن مُشاهَدةِ الأحوالِ والأوائل» (الخصائص ١/ ٢٤٨).

وفي هذا الشّأنِ نبّهَ ابنُ جِنِّيٍّ عَلَى أَمْرٍ نَجِدُنا نظَلُّ محتاجينَ إلى اعتبارِه

واعتدادِه إبّانَ تعامُلِنا معَ المفرداتِ والتّراكيبِ والمنجَزاتِ اللّغويّةِ المختلفة، ومُفادُه أنّ العُلَماءَ الذينَ دَوّنوا مُعْجَمَ اللّغةِ العربيّة في عَصْرِ التّدوينِ الأوّلِ لديهم عِلْمٌ إضافيٌّ بالأوضاعِ والاستعمالاتِ والسِّياقاتِ الحاضِنةِ لِلأقوالِ والكلامِ وغيرِ ذلك، وهو عِلْمٌ استأثَروا هم به بِسَبَبِ مُعاينتهم الأحوالَ الشّاهدةَ بالقُصودِ والمُرادات. ذلك لِأنّ المفرداتِ والألفاظَ المفيدةَ، أو الكلامَ، مَواليدُ مُحِيطٍ لُغَويّ مُركَّبٍ مِن عناصِرَ مختلفة، أُتيحَ لِعُلماءِ العربيّةِ الأوائلِ أن يتعرّفوها بالعِيانِ والمُشاهدةِ والملاحَظةِ الدّقيقةِ القاصِدةِ إلى المعرفةِ اليقينيّة. يقولُ صاحِبُ الخصائصِ في هذا المعنَى: «فلَيتَ شِعْري إذا شاهَدَ أبو عَمْرٍو، وابنُ أبي إسحاقَ، ويُونُسُ، وعيسى بنُ عُمَرَ، والخليلُ، وسيبَوَيْه، وأبو الحسَنِ، وأبو زَيْدٍ، وخَلَفٌ الأحْمَرُ، والأصمعيُّ، ومَن في الطّبقةِ والوقتِ مِن عُلَماءِ البلَدَيْنِ، وُجوهَ العربِ فيما تتعاطاهُ مِن كلامِها، وتقصِدُ له مِن أغراضِها = **ألا تستفيدُ بتلكَ المشاهدةِ وذلك الحضورِ ما تُؤدّيهِ الحِكاياتُ، ولا تضبِطُه الرّواياتُ، فتُضطَرَّ إلى قُصودِ العربِ، وغوامِضِ ما في أنفسها**، حتّى لو حَلَفَ منهم حالِفٌ عَلَى غَرَضٍ دلّتْه عليه إشارةٌ، لا عبارةٌ، لَكانَ عندَ نفسِه وعندَ جميعِ مَن يحضُرُ حالَه صادقاً فيه، غيرَ مُتّهَمِ الرّأيِ والنّحيزةِ والعَقْلِ» (الخصائص ١/ ٢٤٨).

ويُفهَمُ مِن هذا كُلِّه أنّ ابنَ جِنّيٍّ أَولَى هذا العنصُرَ التّداوليَّ قَدْراً كبيراً مِن الاهتمام، وجَعَلَ مِنه أساساً مِن أُسُسِ العِلْمِ بالمفرداتِ والتّراكيب، وأداةً مِن أدواتِ فَهْمِ كلامِ العرب. ويُفهَمُ مِنه أيضاً السَّبَبُ في أنّ الذين نزَلَ القرآنُ الكَريمُ بينَ ظَهْرانَيْهم كانوا يفهمونَ بِقَدْرٍ ما قُصودَ التّنزيلِ في مكوِّناتِهِ المختلفة؛ لِإحاطتِهم عِلْماً بالاستعمالِ اللّغويِّ العربيّ الذي جاءَ الذِّكْرُ الحكيمُ عَلَى طبيعةٍ تُحاكي طبيعتَه، ولِمعرفتِهم الكثيرَ مِن الأسبابِ الباعثةِ عَلَى استمطارِ سَحاب التّنزيل.

المُنجَزُ العربيُّ في عِلْمِ الاستعمالِ اللّغويّ أو التّداوليّة:

مِن هذا الذي قدَّمْناهُ في شأنِ تنبُّهِ ابنِ جِنِّيٍّ إلى هذا العنصُرِ التّداوليِّ الخطير، وهو قليلٌ مِن كثير، يتبيّنُ بالبُرهانِ المُؤيَّدِ أنّ العقلَ اللّغويَّ عندَ عُلَماءِ العربيّةِ الأوائل قد أحاطَ عِلْماً بعناصِرَ تداوليّةٍ كثيرةٍ في إنتاجِ الكلامِ وتلَقِّيه. وأنّ هذا العقلَ الذي عاشَ لِلعربيّةِ، وكَدَّ نفسَه في فَهْمِ كُلِّ ما يتّصِلُ بها، قد يكونُ عالَجَ عناصِرَ تداوليّةً في غايةِ الأهمّيّة، عناصِرَ أكثَرَ اتّصالاً بالعربيّةِ وأَهْلِها وبيئتِها. ولَعلَّ ما عَرَضْناهُ مِن تناولِ ابنِ جِنّيٍّ لِعُنصُرٍ تداوليٍّ واحِد يكونُ مُغْرِياً لِباحثينَ عَرَبٍ مُحقِّقِينَ مُتفانِينَ في خِدْمةِ العربيّة بِأن يُقْدِمُوا عَلَى جَمْعِ ما تفرّقَ في المصادرِ مِن مُعالَجاتٍ تداوليّةٍ أنتجَها العقلُ اللّغويُّ العربيّ. أمّا انتظارُنا عَلَى مائدةِ المترجَمِ لَنا مِن لُغاتِ الآخَرينَ، فسَيُبْقِينا في مرتبةِ «مَوْلَى المَولَى»، التي عَناها الفرزدقُ حِينَ هجا عبدَاللهِ بنَ أبي إسحاقَ فقالَ:

فلو كانَ عبدُ اللهِ مولًى هَجَوْتُه ولكنَّ عبدَ اللهِ مَوْلَى مَوالِيا

تذكيراتٌ واقتراحاتٌ:

١- أنّ انتظارَ الدّرسِ اللّغويِّ الغربيّ إلى العقودِ الأخيرةِ لكي يهتمَّ بالتّداوليّةِ، لا يعني أنّ مباحِثَ التّداوليّةِ مولودٌ غربيٌّ صِرْفٌ مُفاجئٌ، بل ما نجِدُه مِنها اليومَ دَرَجةٌ في سُلَّمٍ بَحْثيٍّ عالَميٍّ صاعِدٍ، سبقَتْها دَرَجاتٌ، وتعقبُها دَرَجات. وإنّ تأخُّرَ الدّرسِ اللّغويِّ الغربيِّ في تناوُلِ مَسائلَ مِن هذا القَبيلِ، لا ينبغي أن يفرِضَ علينا التّأخُّرَ في تَناولِ هذه المسائل.

٢- أنّ ما نحنُ في حاجةٍ ماسّةٍ إليه في الشّأنِ الذي نحنُ فيه أَمْرانِ: أن نقتُلَ تُراثَنا تبصُّراً وتأمّلاً وخُبْراً، وأن نجمَعَ إلى ذلك الخِبْرةَ بِما

أنتجَ الآخَرُ في المجالِ المشترَك. ثمّ تكونُ الخَلْفيّةُ المعرفيّةُ الثُّنائيّةُ أساساً لبحثٍ عميقٍ في مستودَعِ ما خلّفَهُ لنا الآباءُ الرّائعونَ.

٣- أدعو شُعَراءَ العربيّةِ بَدْءاً مِن الآنَ إلى تقديمِ إحاطاتٍ سَريعةٍ قَبْلَ قصائدِهم التي ستُنشَرُ، تُصوِّرُ شيئاً مِن «الأحوالِ الشّاهِدةِ» بقُصودِهم ومُراداتِهم. وأحسَبُ أنّ اعتمادَ ذلك سيُساعِدُ متلقِّي شِعْرِهم عَلَى فَهْمِه واستظهارِه وتقديرِه في الرّاهِنِ والآتي، وسيُعينُ الدّارسينَ عَلَى إتقانِ دَرْسِ أشعارِهم، والحُكْمِ الصّحيحِ عليها.

٤- أدعو مُدرّسي العربيّةِ في المستوياتِ المختلفةِ، ومؤلِّفي الكُتبِ المدرسيّةِ الخاصّةِ بتدريسِ العربيّةِ في الصّفوفِ المختلفة، إلى إعلامِ الطّلَبةِ قَدْرَ المستطاعِ بمُناسَباتِ إنشاءِ الأبياتِ والقصائد، والظّروفِ التي صاحبَتْ إنشاءَها وإنشادَها؛ لِما لذلك مِن تأثيرٍ في فهمِها واستظهارِها وتذوّقِها وتقويمِها التّقويمَ الصّحيح.

والحَمْدُ للهِ ربِّ العالَمين.

* * *